موت افلاطون

الفيلسوف اليوناني المعروف بالفيلسوف الالهي مؤسس المذهب الاكاديمي في الفلسفة . ولد بأيجينا Aegina سنة ٤٢٩ ق م توفي سنة ٣٤٨ ق . م .
نقلا بتصرف عن مجلة هيبرت — Hibbert — بقلم ج . م سارجنت

J. M. Sargeant, M. A.

مرت على الطبيعة انفاس الربيع مبكرة في ذلك العام (٣٤٨ ق . م) بارض أغريقية . واعتدل مزاجها في نهاية الشتاء ، فتوالت الايام مشمسة وضاحة الجبين ، اللهم الا بضعة أيام كان يتخللها في المطر رذاذ يحيي الموات من أعشاب الشتاء ، وتتنفس معه الصدور ذلك العبق المنعش الذي تبعثه أوراق شجر الصرو والصنوبر فتهز أعماق النفوس وتشعرها بأن الحياة حقيقة ، وأنه بجانب ما في هذه الحقيقة من آلام وغصص ، سويعات من السرور تبعث في أعماق الوجدان الانساني شعور بسعادة الخلود وعظمة الأبد ، وجمال الحرية ، وروعة اللانهاية . وكذلك امتد الربيع الى جوف الصيف ، فكانت الاشهر الجرداء المحترة في أرض اغريقية من كل عام ، كأنها نفحة من نفحات الخريف الجميلة ، اذ تزدهر الطبيعة بما فيها من صور الحياة ، وكأنها تودع الوجود استعداداً لموت الشتاء الطويل ، ولكن الى حين

وعلى الرغم من ضعف البدن والتهدم الذي أصاب الفيلسوف العظيم بعد أن أربى على الثمانين من سنيه ، وقد ظهر أثره على الاخص في ابتعاده عن القاء المحاضرات ، فانه شعر في ذلك العام بانتعاش جدد من أيام شيخوخته ، فاكب على التفكير والكتابة . والظاهر أن اعتدال الطقس وجودة الهواء ، قد جددت من قواه الحيوية والتفكيرية إلى درجة لم يكن يحلم بها افلاطون بعد أن بلغ مابلغ من العمر . فقد أخذ يعمل يوماً بعد يوم بهوادة وقوة في انجاز كتابة في « القوانين » ، مكباً على النظر في ما اجتمع لديه من مادة وخبرة ، ليترك للاخلاف من بعده في صورة كتاب شامل ، نتائج تأملاته الطويلة السديدة في الطبيعة البشرية ومعنى الحياة

وكان يجمع في بعض الاحايين تلاميذه من حوله ، ساعة في قاعة محاضراته ، وأخرى في مكان في حديقة الاكاديمي ظللته الاشجار الملتفة ، فيقرأ عليهم شيئاً من المقطوعات التي كتبها واختص بها حالات متباينة من حالات الحياة الانسانية . تلك

المقطوعات التى وضعها من بعد كمقدمات لبعض القوانين ، التى كان مكبا إذ ذاك على النظر فيها وتنقيحها . وبعد أن يتم قراءة هذه المقطوعات يصغى فى سكون وصمت للمناقشات التى تدور حول الموضوعات التى عرضها على تلاميذه ، ملاحظاً برضاء وحب ، الكلمات التى يتلفظ بها أحد التلاميذ ، ثم الفكرات التى يدلى بها آخر ، وقد أضاء حماس المناقشة وجوههم المحبوبة عنده ، بينما يكون الفيلسوف العظيم غارقا فى بحر من الذكريات يستعرض فيها الاجيال التى تتابعت من حوله وتلقت عنه فى هذا المكان عينه ، ثم غادرته لتأخذ نصيبها من حياة الكد والعمل . وقد يتصور فى حين من الاحيان مقدار مايستطيع أن ينفع هؤلاء الذين القوا بين يديه مستقبل أعمارهم فى الدنيا . فيخيل اليه أنه ضئيل ثائه بجانب ماتلقى هو عن أستاذه سقراط . ثم يرجع بذاكرته إلى أيام صباه ، فيتخيل نفسه صبياً ثم فتى ، ينظر الى سقراط فى اسواق

> من كلمات سقراط الخالدة قوله : (إن من يكون فى مستطاعه ان يحدث أقصى الشر ، كذلك يكون فى مستطاعه ان يحدث اقصى الخير) . عن افريطون

أثينا نظرة كلها حب ، ثم يتخيل انه يناقشه أو يناقش غيره من الناس ، لافى هدوء الاكاديمى وجوها الصامت الحزين ، بل فى ميادين أثينا المزدحمة الصاخبة ، او بجوار « الجيمنازيوم » Jymnasium — محل الالعاب الرياضية — ومن ورائهم لفيف من الشبان استلقى بعضهم على العشب طلباً للراحة وأخذ بعضهم يتمرنون تمريناتهم الرياضية فى نشاط وحركة دائمة تحت أشعة الشمس المحيية . ومن ثم يفكر ، أهذه هى امثل طريقة ؟ ان تختلط بالناس وتكون بينهم فى وسط صخبهم ولغطهم وحركتهم ، وأن تشاركهم فى صخبهم هذا ، وان تتسقط من تناقشه منهم فى الروحات والجيئات . وقد أخذ بخناقهم كد العمل والسعى وتملكهم الجشع والطمع بما يحدوهم اليه الامل فى الحياة ، ؟

فاذا استغرق افلاطون فى تأملاته هذه ، ورجعت به الذكريات الى الماضى بضعة عقود من الزمان ، كف تلاميذه عن المناقشة والكلام احتراما لصمته الرهيب المحبوب ، اذ يعتقدون أنه انما هو معهم بجسمه لابعقله . وأنه انفصل عن الحاضر والتحمت افكاره بالماضى البعيد . فاذا صرفهم من حوله بلطف ولين ، ترك مجلسه إلى مكان بعيد . غير مطروق من الحديقة التفت من حوله الاغصان عرف زمانا طويلا بعد موته بانه « مضطجع افلاطون »

وكثيراً ما كان يردد افلاطون كلما جاء الى هذا المكان ابيات صديقه سوفوكليس — Sophocles — فى احدى رواياته :

« هذه أرض مقدسة ، كساها الزيتون والغار والاعناب »
« وفى ظلالها الوارفة ، ارسلت الكروان أنغامها الحزينة »

Holy ground is this, thick set
With olive, laurel,vine in whose deep shade,
The frequent nightingales make melody, -

* * *

سئل افلاطون قبل ان يموت عما يكتب على قبره . فقال يكفى ان تكتبوا — (افلاطون) — وبعد الحاح من احد تلاميذه : اوصى ان يكتب على قبره هذه الكلمات
(ايتها الارض : ان كنت تخفين جسد افلاطون . فانك لاتستطيعين الفوز من نفسه التى لاتموت)

وكان قلما تأخذه سنة من النوم خلال الساعات الاولى من الظهيرة . بل كثيرا ما كان يتعذر عليه ان يدرك انه كان متيقظاً أم نائماً : فلقد كان يطير بخياله الخصب إلى اعماق الماضى البعيد ، حتى ليفسى ماحوله ، ويستعصى عليه أن يدرك انه كان فى يقظة صحيحة ، أم هو فى حلم من الاحلام اللذيذة ، خلال سنة من سنات الكرى الهنية .

وكان إذ يضطجع فى ذلك المكان مسنداً ظهره الى جذع شجرة كبيرة ، يرى من خلال أغصان الزيتون الملتفة حصن « الاكروبوليس » (١) Acropolis مشرفا بهامته المجيدة على بيوت أثينا ، وقد توجته الاقواس الكبرى القائمة من فوق أبوابه ما يمتد وراءه من الهياكل والمعابد ،فكان يلوح لافلاطون كانه مثال « الحق » فى ثباته وقوته وقد يمر بتصوره أن « الاكروبوليس » هو الشىء الوحيد فى اثينا الذى ظل كما كان منذ عهد فتوته فلم تعمل فيه يد الزمن ، ولم تغير منه طوارىء الحدثان .

---

(١) الاكروبوليس — قلعة قائمة على رأس تل بجوار أثينا . يقال أنها أسست واختطت قبل أن يقوم أى بناء منه فوق السهل الذى يكتنفها راجع القاموس الانسيكلوبيذ ص ٢٥ مجلد أول

1 Whitslaw's translation.

وعلى هذا التل وحده دون غيره ، وحتى قبل أن تبنى البروبيليا ١٠ Propylea وقبل أن يقوم هيكل أثينا كما كان يرى أفلاطون ، هبت نفحات ذلك الشعور النبيل الذى نظم من سرى الجند وبعث فيهم روح الشجاعة والالفة . تلك التى كانت ذات يوماً مثار ذلك الوحى القدسى الذى نزل على قلوب الآثينيين ، فالهمهم والقوة الصبر إذ كانوا يقاتلون فى سبيل الحرية . أولئك البرابرة الذين زحفوا عليهم من الشمال

أم ن ذلك كاالوحى قوة استقرت فى قلوب أولاء من عظماء الرجال مثل بركليس الذى مات فى السنة التى ولد فيها أفلاطون أوسقراط استاذه ، أو غيرهما من الرجال الذين عاشوا فى أثينا من قبلهما ، واستطاعوا بتوقد أرواحهم أن يحيوا الموات من قلوب آل أثينا ؟

° ° °

ثم تعود اليه ذكريات الماضى البعيد ، كقطع موسيقية ترن أصداؤها فى فضاء السنين ٢٠ ، وتعاوده معها ذكريات أصدقائه القدماء فى أثينا خلال العهد الاخير من الحرب العظمى ، وسقوط مدينتهم وذلك العصر البربرى الذى اختتم بقتل استاذه العظيم سقراط . . وكم كان يتصور بعد ذلك اليوم . كان قد مضى عليه أكثر من خمسين سنة اذ ذاك . ذلك اليوم الذى سمع فيه آخر الكلمات من فم سقراط حية متجددة فى ذاكرته . شكله وتعبيراته وحركاته ومشيته . كل هذه الاشياء ظلت بينة متحيزة فى مخيلته كما كانت يوم أن قضى سقراط آخر أيامه الدنيوية . . . ثم يستجمع نبرات صوته وتدرجاته قوة وضعفا خلال المناقشات . ونظراته الحادة التى يرسلها الضياء المنبعث من عينيه ، تلك النظرات التى كان يخيل الى من يراها أنها تستشف ماورا الهيكل البشرى ليعرف أسرار النفس والروح

غير أنه مع كل هذا كان كلما يحاول أن يستخلص من ذكرياته شيئاً من أقوال سقراط أو تعاليمه فى أى موضوع من الموضوعات التى عالجها . كان يشعر بأنه يتعذر

---

1 As a ripple of Music, singing across the space of years

(٢) البروبيليا أو البروبيليوم Propylaeum وهو يكون أمام هيكل أو باب كبير . مدخل أى من افيا كل الاغريقية أو باب كبير تمتد من حول جانبيه لليمين . ويدعى بهذا الاسم على الاخص مدخل لاكروبولس فى أثينا والبروبيليوم هو أعظم بناء فنى أقيم فى آخر عهد بركليس المعروف . راجع القاموس لانسيكلوبيدى ص ٨٨ مجلد ٥

عليه أن يفصل بينها و بين فكراته الذاتية ، أو يفرق بين تعابير سقراط وتعابيره .

° ° °

فى اليوم الذي كتب فيه افلاطون آخر كلمة من كتاب القوانين شعر بأن حياته قد آن ختامها . شعر بأن حياته قد اكتملت كل معانى الألفة ، شعر بأنها كبناء كامل الألفة تام الاتساق ، وأنه لم يبق على بانيه الا أن يفارقه بعد طول اكبابه على بنائه . شعر بأن المدبر الذى كان يدبر ذلك الهيكل الكامل ، لم يبق فى حاجة الى تدبيره .

° ° °

فى ذات مساء ، وقد اشتد الحر فى جوف الصيف ، و بعد يوم صرفه متعبا فى عرس أحد أصدقائه ، آوى الى حديقة الاكاديمى ، حيث كان من عادته أن يستريح فى ذلك المكان الصامت الحزين .

وجده تلاميذه كما لو كان نائما فى مضطجعه المعتاد . غير أنهم عند ما اقتربوا منه ليوقظوه ، لم يجدوا هنا لك من حاجة بقيت لافلاطون فوق الأرض . كانت روحه قد فارقت البدن الترابى . كانت قد زاولت الارض لتلتحق بالرفيق الأعلى ، ولتشرف من عليائها على « المناظر القدسية فى أغوار السموات » .

جمد تلاميذه كل فى مكانه هنيهة . وساد صمت رهيب يغشاه حزن خارج من من أعماق النفوس .

وبعد قليل ردد أحد التلاميذ أبياتاً من الشعر قالها افلاطون فى موت أحد أصدقائه [١] منذ زمان طويل ، غير أنها كانت أحكم ما يقال فى موته هو ، قال :

« لقد كنت بين الأحياء نجمة الصباح
« قبل أن يخبو ضوؤك الوضاح
« أما الآن ، و بعد أن مت ، فأنت كاسبيروس [٢] تحبو
« الاموات بفجاج جديدة من الضياء [٣] .

---

(1) Aster.

(٢) نجمة المساء . وفى البيولوجيا ابن لواغ أطلس - لزيادة الشرح راجع الانسيكلوبيدية البريطانية مجلد ١٣ ص ٤٠٨ الطبعة الحادية عشر

(3) " Thow wert the morning star among the living
Ere thy fair light had fled,
Now, having died, thow art as Hespenus giving
New splendour to the dead "